Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Dergisi Yıl, 2017 *Sayı,* 6: 31-59.

التشكيل الأسلوبي لخواتم الآيات القرآنية التي تشمل أسماء الله الحسنى

Dessouki İbrahim MOHAMED IBRAHIM*

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة التركيب اللغوي ، الذي تعتمد عليه الخاتمة القرآنية في بنائها الأسلوبي . وتُبنى تلك الخواتم على لونين من الأسلوب : الخبري والإنشائي .ولما كان هذا التركيب اللغوي ، يتكئ على التفاعلات اللغوية ، بكل طاقاتها الإبداعية المتنوعة ، تمثلت وظيفة هذا البحث في إظهار الإعجاز القرآني ، الذي ينبثق من هذا التركيب .

الكلمات المفتاحية : الخبري ، الإنشائي ، التركيب ، الخواتم ، القرآنية .

Sonu Esmau'l-Husna İle Biten Ayetlerin Uslup Biçimi

Özet: Bu çalışma, ayetlerin sonlarında "inşai ve haberi üslupta" bulunan Esmau'l-Husnaları dilsel açıdan incelemeyi amaçlamaktadır.

Anahtar Kelimeler: Havatimu'l-Ayat, Haberi, İnşai, Kur'an.

Abstract: This treatise aims at discussing the linguat structure On which the Qur'anic end depends on its style structure. These ends are built on two kinds of style : structural and stative as lingual structure,is based on lingual interactions by all its various innoyative power. this stud ,s target is to clayify the Qur'anic miracle which is shown from this structure.

Key words : Vocabulary, stative, structural, engdings, Quranic .

* Yrd. Doç. Dr. Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

المقدمة :

الخاتمة القرآنية، هي التركيب اللغوي الدلالي الذي يمكن الوقوف عليه ، قبل الوصول إلى نهاية آية ، أو آيتين ، أو عدة آيات. ومثال الصنف الأول قوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ (البقرة:20). ومثال الصنف الثاني ، قول الله عز وجل:﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:220) .

ومثال الخاتمة التي تأتي لآيات عدة ، قول الله عز وجل :﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء:9) ، التي تكررت في هذه السورة ، بعد كل قصة من قصص الأنبياء ، مسبوقة بقوله تعالى﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

إشكالية البحث :

لما كانت الخاتمة تمثل منطقة استراحة ، تميزت بتكثيف دلالي غير عادي ؛ فهي من ناحية ، تعد ذروة سنام الآية الكريمة ، ومن ناحية أخرى، لا يتم معنى الآية إلا بها .ومع أنها تأتي في نهاية الآية ، تُسمى فواصلها رؤوس الأي .وإذا كان الرأس هو المحرك الأساسي للبدن ، فإن خواتم الآيات تعد العُمد والأساس الدلالى لآياتها. لذا، فقد جاء هذا البحث لكشف الجماليات الفنية، وإبراز الإشعاعات الإعجازية في هذا الحيز الضيق مكانيا، الواسع دلاليا في الآيات القرآنية.

المنهج البحثي :

ستعتمد هذه الدراسة على المنهج الفني ، الذي يُبنى على رصد الظواهر اللغوية ، والطاقات الفنية للغة في مستواها الإبداعي الجمالي . ولما كان هذا هو الهدف ، كان المنهج الأسلوبي هو أفضل المناهج القرائية التي تناسب طبيعة هذه الدراسة .

محتويات البحث :

ووفق هذا ، يحتوي البحث على :مقدمة ، وإشكالية البحث ، والمنهج البحثي، ثم بحثي الدراسة : الخواتم ذات الأسلوب الخبري ، والخواتم ذات الأسلوب الإنشائي ، ثم الخاتمة ونتائج البحث ، وأخيرا المصادر والمراجع .

المبحث الأول : الخواتم ذات الأسلوب الخبري

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى، أن تُبنى اللغة العربية على نوعين من أنواع الأسلوب: الأسلوب الخبري ، والأسلوب الإنشائي. وتحت كل أسلوب من هذين الأسلوبين، تندرج أغراض شتى ، على حسب نوع الأسلوب ، وما يضمه من أدوات مختلفة . وينبغي أن نعرف بداية ، أن

الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي ، ينتميان إلى علم المعاني ، وهو أحد العلوم البلاغية المهمة.

وإذا بدأنا بالأسلوب الخبري ، وجدنا أنه تركيب يحتمل الصدق والكذب ، ومن ثم فهو ينقسم – من حيث المخاطَب- إلى ثلاثة أنواع : **الأول** هو الخبر الابتدائي ، وهو الذي يُخَاطَبُ به خالى الذهن ، بمعني أني عندما أقول لك : محمد جاء ، فأنت تصدقني ، ولا تحتاج إلى تأكيد لمجيء محمد . **والثاني** هو الخبر الطلبي، بمعنى أن المخاطَبَ يحتاج من المتكلم إلى تأكيد ما يقول ، فأقول: إنَّ محمدا جاء . **والثالث** الخبر الإنكاري ، وهو إنكار المخاطَب للمتكلم ، ومن ثم ، يحتاج المتكلم إلى أكثر من أداة توكيد للتحقق من كلامه ، فأقول مثلا : والله إنَّ محمدا قد جاء (1) . ومن الثابت أن هذه الأنواع ، تشمل الجملة الاسمية والفعلية على حد سواء .

وفيما يخص النوع الأول من أنواع الخبر (الخبر الابتدائي) ، فقد وقع كثير منه في خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى ، بيد أن كثيرا مما جاء من هذه الأنواع ، يندرج تحت الجملة الاسمية. أما ما جاء من الخواتم ،معتمدا على الجملة الفعلية ، فقد جاء في إطار أسلوب الشرط ، أو الأسلوب الإنشائي بأقسامه المتعددة ، كما سنرى بعد قليل .

وعلى الخبر **الابتدائي** (الخالي من أدوات التوكيد)، بُنيتْ كثير من الخواتم القرآنية . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة : 218) . وإذا نظرنا إلى الخاتمة (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، نجد أنها جملة اسمية ، بنيت على الأسلوب الخبري الابتدائي ، أي أنها لم تحتج إلى مؤكدات . وإذا عرضناها – من الناحية البلاغية – على جانبي الصدق والكذب من جانب المتكلم والمخاطَب ، فإن كل ما جاء في القرآن الكريم من خواتم وغيرها ،ابتداء من الحرف، إلى ما ضمته دفتا المصحف الشريف ، هو صدق محض ، من جانب المتكلم (رب العزة سبحانه وتعالى) ، والمخاطَب المتمثل في النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين الذين تلقوا القرآن من لدن حكيم خبير .

---

(1) انظر: العلوي ، الطراز ، مطبعة المقتطف بمصر ، 1914 م ، الجزء الثالث: 251-255 , والسكاكي : مفتاح العلوم ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م :254 ، 255 . والقزويني: الإيضاح في علوم البلاغة دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، 2003م : 28 .

وإذا عدنا إلى المخاطَبين في الخاتمة السابقة ، وجدنا أنهم مسلمون ، بل ينتمون إلى أعلى درجات الإيمان : الإيمان (الَّذِينَ آمَنُوا) ، والهجرة (الَّذِينَ هَاجَرُوا) ، والجهاد (وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ([2]). وإذا كان الحال هكذا من جانب المخاطَبين ، فإن الخاتمة ليست في حاجة إلى تاكيد ؛ لأنها تقع من المخاطَبين موقع اليقين ، الذي لا تشوبه أية شائبة .

وفي هذه الخاتمة يقول الألوسي :" (والله غفور رحيم) تذييل لما تقدم وتأكيد له . ولم يذكر المغفرة فيما تقدم ؛ لأن رجاء الرحمة يدل عليها ، وقدم وصف المغفرة ؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"([3]).وإذا اعتمدنا ما قاله الألوسي، من أن هذه الخاتمة، تعد تأكيدا للمضمون السابق في الآية، فإن التأكيد لا يحتاج إلى مؤكد. ومن هذه الطرق، جاءت الخاتمة، معتمدة على الأسلوب الخبري الابتدائي، وكذلك لسلامة ذهن المخاطب، وخلوه مما يعوقه من التصديق ([4]).

وأما الخبر **الطلبي** ، فهو الذي يحتاج إلى مؤكد ، ليؤكد صحته بالنسبة للمخاطَب . ومن مؤكدات الجمل : إنَّ ، وأنَّ ، ولام الابتداء ، وأحرف التنبيه مثل (ألا) ، والقسم ونون التوكيد ، والتكرار، وقد ، وأمَّا الشرطية ، وإنما ، واسمية الجملة ، وضمير الفصل..إلخ ([5]).

وفي هذا النوع من الأسلوب ، يقول مولانا جل وعلا : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : 115) . وهناك اختلاف وآراء كثيرة دارت حول سبب نزول هذه الآية ([6]) .

([2]) سينصب حديثنا في هذا الجزء من الدراسة – في مسألة الصدق والكذب – على أحوال المخاطَبين ، إذ هم الذين يختلف حالهم من مصدق ، ومكذب ، ومشكك ، ومنكر ، وجاحد . أما المصدق ، فهم المسلمون بلا استثناء ، حتى ضعاف الإيمان منهم ، فلم نسمع أن أحدا من المسلمين ، كذب القرآن الكريم .أما بقية الأحوال ، فإنها تنحصر في غير المسلمين .أما المتكلم ، فهو مولانا جل وعلا (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) (النساء:87) .

([3]) انظر: روح المعاني ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، بدون تاريخ ، الجزء الثاني : 111.

([4]) وانظر في أسباب نزول هذه الآية ، النيسابوري ، أسباب النزول ، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، 1411هـ - 1991مـ :69 – 72 . وسأدرس لكل نوع من أنواع الأسلوب الخبري موضعا واحدا ، منعا للإطالة .

([5]) انظر: السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة المكتبة ، العصرية ، الطبعة الأولى ، 1999م :58 .

([6])انظر: النيسابورى ، أسباب النزول : 39 – 42 .وانظر في تعدد أسباب النزول :التفاسير المختلفة للقرآن.

وأيّاما كانت أسباب النزول ، فللتأكيد بمؤكد واحد مبرراته وعلله على هذا النحو : **أولا** أن الآية تتحدث عن أخطر شيء يتعلق بأهم فرض في الإسلام ، ألا وهو (الصلاة) المتمثل في (القبلة) . وللخطورة والأهمية ، سيق التأكيد . **ثانيا** أن الصحابة عندما تغيرت القبلة ، ربما وقع في خاطرهم ضياع ما مضى من صلاة ، لذلك خاطبهم الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة:143) ، درءا لهذا التوهم الذي ربما يقع . **ثالثا** أن المسلمين يعرفون أن للقوم (اليهود – النصارى) قبلة يتجهون إليها في صلاتهم ، ولهم معابد يصلون فيها ، فأراد مولانا عز وجل ، أن يلقي في قلوبهم الأمن والأمان والاطمئنان واليقين ، بأنهم مفضلون على الآخرين ، ومن ثم جُعِلتْ لهم الأرض مسجدا ، وترابها طهورا . أما القبلة ، فإلى أي مكان يتجهون فهو قبلة لهم ، تفضلا ، ورحمة ، وسعة منه ، عز وجل ؛ فهم كثيرو الخروج في الغزوات ، وحتما سيؤدون الصلاة ، مع عدم معرفتهم اتجاه القبلة ، فجاءت الخاتمة بالتأكيد ([7]).

رابعا أن مولانا عز وجل ، يعلم ما سيلقاه المسلمون من لسان أعدائهم ، ولكي لا يعيرون أهمية لمثل هذا – بل هم الذين يفتخرون عليهم ، ويتباهون بفضل الله – أخبرهم بصيغة التأكيد ، أن المشرق والمغرب له سبحانه ، وهذا خاص بالمسلمين ، لا غيرهم .

خامسا:أن مولانا عز وجل ، يعلم الحمل الثقيل الذي تحمله الصحابة ، جراء خروجهم من مكة ، أحب بلاد الله إلى الله ورسوله ، وإلى الصحابة الذين هاجروا ، بل إلى كل المسلمين ؛ فقد تنفس صعيدها أول من تنفس عطر القرآن الكريم ، ومن هنا أراد مولانا أن يسري عنهم بهذه البشرى المؤكدة ، التي تدخل السرور على قلوبهم .

فإن قيل : لماذا جاء التأكيد بأداة واحدة ؟ قيل لك: إن المولى عز وجل يخاطب خيرة خلقه ، وهم الصحابة رضوان الله عليهم جميعا ، والصحابة على ما هم عليه من قوة إيمان ، لا يحتاجون إلى تأكيد من المولى عز وجل ، بيد أنه سبحانه وتعالى ، هو الذي خلق الخلق ، ولا يريد أن تتعلق شائبة ولو صغُرت بقلب مؤمن ، لذا ساق الحق سبحانه وتعالى الخاتمة بالاعتماد على أداة واحدة . فما أكرمه من إله ! وما أعظمه من معبود .

([7]) وحتى في العصر الحديث ، في حالة السفر بالسيارة ، أو الطائرة ، أو القطار . وهذا من فضل الله علينا.

والنوع الثالث من أنواع الخبر ، يتمثل في الخبر **الإنكاري** . ويحتاج هذا اللون من الخبر إلى أكثر من مؤكد . وهنا يقول مولانا عز وجل : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق :12). وقد اعتمدت الخاتمة على مؤكدين صريحين، وإشمام لمؤكد ثالث . أما المؤكدان الصريحان ، فيتمثلان في (أنَّ) و (قد) ، إضافة إلى صيغة الماضي (أحاط) التي تفيد التأكيد والتحقيق كذلك. أما الإشمام، فيقع في التمييز (علما) المحول عن الفاعل ، فأصل الآية في اللغة الإخبارية / العادية (وأن الله قد أحاط علمه بكل شيء) . ومجيء التمييز على هذا الوجه ، يدل على التوسع الدلالي في المضمون . وقد وردت هذه الخاتمة في قول الله عز وجل : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

وإذا فتشنا عن العلل التي وردت من أجلها الخاتمة ، على هذا النحو ، المؤكد بكل هذه التأكيدات ، وجدنا أنها تتبلور – الآن – في علة واحدة ، بيد أنها علة عظيمة . وتتمثل هذه العلة في أن مضمون الآية ، يتناول خلق السموات والأرض ، وليس ذلك فحسب ، بل مقرونتان بالعدد (سبعة) . وفي خلق السموات والأرض من العجب والإتقان والعظمة ما فيه.

وهنا يقول ابن عاشور ، بعد أن فصل القول في مضمون خلق السموات والأرض :" والمعني : أن مما أراده الله من خلقه السموات والأرض ، أن يعلِّم الناس قدرة الله على كل شيء ، وإحاطة علمه بكل شيء ؛ لأن خلق تلك المخلوقات العظيمة ، وتسخيرها ، وتدبير نظامها في طول الدهر ، يدل أفكارَ المتأملين على أن مبدعها يقدر على أمثالها ، فيستدلون بذلك على أنه قدير على كل شيء ؛ لأن دلالتها على إبداع ما هو دونها ظاهرة ، ودلالتها على ما هو أعظم منها ، وإن كانت غير مشاهدة . فقياس الغائب على الشاهد ، يدل على أن خالق أمثالها ، قادر على ما هو أعظم . وأيضا فإن تدبير تلك المخلوقات بمثل ذلك الإتقان المشاهد في نظامها ، دليل على سعة علم مبدعها ، وإحاطته بدقائق ما هو دونها ، وأن من كان علمه بتلك المثابة ، لا يُظن بعلمه إلا الإحاطة بجميع الأشياء .

فالعلم المراد من قوله (لتعلموا) صادق على علمين : علم يقيني مستند إلى أدلة يقينية مركبة من الدلالة الحسية والعقلية ، وعلم ظني مستند إلى الأدلة الظنية والقرائن . وكلا العلمين موصل

إلى الاستدلال في الاستدلال الخَطَابي " ([8]) . ويقول الألوسي :" (وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) لاستحالة صدور هذه الأفاعيل ممن ليس كذلك "([9]) .

إذن جاء التأكيد على هذا النحو ، لعظم ما يتناوله المضمون من خلق السموات والأرض . وهناك شيء آخر ، هو أن الحق سبحانه وتعالى ، وإن كان يخاطب المسلمين في عصر نزول القرآن الكريم، فقد حوى علمه ، ما سيحدث في العصر الحديث من علوم ، تبحث عن تركيب الأرض ، وتصعد إلى السماء ، فتحاول التعرف على ما فيها . كما يعلم أن من هؤلاء العلماء من هو ليس بمسلم ، وأن العجب والأخذ باللب ، وتطاير العقل ، من شدة هول ما سيرى ، حتما سيقع . ومن ثم أراد مولانا سبحانه ، أن يخاطب هؤلاء بأن ما شاهدتموه من إتقان في الخلق – فضلا عما هو كامن بين السماء والأرض من تعدد المخلوقات ، المدبَّرة شؤونها في نواحي الحياة شتى – يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يخلق أعجب وأعظم من هذا ، وهو الكامن في قوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

ومن هنا ، يمكن القول: إن التأكيد الذي جاء على هذا النحو ، وقد شمل أكثر من مؤكد ، له ما يبرره من طريقين : **الأول** بيان عظمة مولانا جل وعلا . **الثاني** ما يحتاجه غير المسلم – وهو في هذه الحالة مُنْكِرٌ– إلى كثير من أدوات التوكيد ، فربما يزول إنكاره ، ويعود إلى الله ، إن كان من ذوي الألباب النيرة .

كما يضاف إلى التاكيد هنا، الإظهار في موضع الإضمار، وذلك في منطقة اسم(أنَّ) في قوله :(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) . إذ ذُكِرَ لفظ الجلالة (الله) في هذه الآية وحدها مرتين ، قبل هذا الموضع (اللَّهُ الَّذِي ...) و (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ...) . وكان من الطبيعي أن يأتي في صورة الضمير(وأنه قد أحاط بكل شيء علما) . لكن لم يأت التعبير على هذا النسق للآتي : **أولا** بيان العظمة على خلق ما سبق . **الثاني** التخصيص ، بمعنى أن الذي خلق هذا الخلق ، على هذه العظمة ، هو هو الذي أحاط كل شيء علما . **ثالثا** ازدياد المؤمنين تقى ، وتحريك قلوب غيرهم ، ولفت انتباههم إلى بديع صنع الله ، ومن ثم التوجه إليه . **رابعا** : إظهار التفرد والوحدانية، في أن من خلق هذا، وأحاط كل شيء علما، ويمتلك قدرة مطلقة على خلق ما يريد،

([8]) انظر : التحرير والتنوير ، ، الدار التونسية للنشر، 1984 م ، الجزء الثامن والعشرين :341 ، 342 .

([9]) انظر : روح المعاني ، الجزء الثامن والعشرين : 146.

هو (الله) وحده . على هذا ، وغيره كثير ، دل إظهار اسم الحق سبحانه وتعالى ، في موضع الإضمار.

وأحيانا تؤكد الخاتمة بـ(إنَّ واللام) ، كما في قوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون:18) . وأحيانا أخرى (إن وضمير الفصل هو) ، كما في قول الله عز وجل:﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (لقمان :26) . وأحيانا ثالثة (إن وضمير الفصل أنت) ، كما في قول الله عز وجل:﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة :127) . وأخيرا تؤكد الخاتمة بثلاث أدوات (إن واللام وضمير الفصل هو)، كما في قوله سبحانه:﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران :62) . وعلة هذا التأكيد المعتمد على أكثر من أداة ، أن المخاطَب يكون في حكم المنْكِر.

ومن أدوات التوكيد(ألاَ) بفتح الهمزة واللام . وهذه الأداة لها خمسة أوجه : منها التنبيه ، ويقول أصحاب الإعراب : إنها استفتاحية . كما تفيد هذه الأداة تحقيق ما بعدها ، قال الزمخشري : ولكونها بهذا المنصب من التحقيق ، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم ، نحو﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(يونس:62)([10]).

وقد وردت خاتمتان اثنتان من الخواتم التي تشمل أسماء الله الحسنى ، اعتمدتا على الأداة (ألا). يقول الله عز وجل في الأولى منهما : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشورى :5) . وقد وردت هذه الآية في سياق قول الله عز وجل : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . وفي الثانية يقول مولانا عز وجل :﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (فصلت:54) . وقد وردت هذه الخاتمة في سياق قول مولانا عز من قائل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ .

أما الخاتمة الأولى ، فقد أفادت (ألا) تحقيق ما بعدها من مضمون ، أي أن الرحمة والمغفرة ثابتتان لله عز وجل ، وهو ما يفهم أيضا من معنى وقوع ما بعدها في إطار القسم . وقد جاءت الخاتمة مؤكدة على هذا النحو بثلاث أداة للتوكيد : (ألا) و(إنَّ) وضمير الفصل(هو) ، فضلا عن التعريف الذي لحق الاسمين (الغفور ، الرحيم) . والمبرر في هذا ، أن كون الملائكة تستغفر لمن في الأرض ، أنه ثمة ذنوب تقع ، وسيئات ترتكب ، وفواحش تحدث ، من بني البشر ، ومنهم

([10]) انظر :ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية،1991م ،ج1: 80

المسلمون . لذا جاءت الخاتمة معتمدة على الأسلوب الخبري (الإنكاري) ، مؤكدة بأكثر من مؤكد ، لدفع التوهم والتشكك ، في أن الحق سبحانه وتعالى : كيف يغفر لهؤلاء مرتكبي الجرائم ، الذي يستدعي الأمر أن تستغفر لهم الملائكة على هذا النحو ! . ومن ثم جاءت الخاتمة على أعلى درجة من الفصاحة والبلاغة والبيان .

أما الموضع الثاني الذي جاءت فيه الخاتمة معتمدة على الأداة (ألا) ، فهو خاتمة سورة (فصلت) ، الذي يقول فيه المولى عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ . والخاتمة كما نرى ، مؤكدة بأداتين من أدوات التوكيد : (ألا) و(إنَّ) . ومن ثم فهي تقع تحت نوع الأسلوب الخبري (الإنكاري) .

وننظر أولا ماذا تقول التفاسير. يقول ابن عاشور عن الآية كلها: " تذييلان للسورة ، وفذلكتان افتتحا بحرف التنبيه اهتماما بما تضمناه . فأما التذييل الأول ، فهو جُماع ما تضمنته السورة من أحوال المشركين المعاندين ، إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث ، فكانوا في مأمن من التفكير فيما بعد هذه الحياة ، فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدنيا ، وانكبوا على ما يعود عليهم بالنفع فيها .

وأما التذييل الثاني ، فهو جامع لكل ما تضمنته السورة من إبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم ؛ لأن ذلك كله من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة .

وتأكيد الجملتين بحرف التأكيد ، مع أن المخاطَب بهما لا يشك في ذلك ، لقصد الاهتمام بهما واستدعاء النظر لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيات ... وبهاتين الفذلكتين آذن بانتهاء الكلام فكان من براعة الختام "([11]) .

ويقول محيي الدين زادة، في حاشيته على تفسير البيضاوي:" إن (ألا) كلمة تنبيه بمعنى (اعلم). والله أعلم"([12]). ويقول السمرقندي: " ألا: كلمة تنبيه يعني: اعلم أنهم في شك من البعث "([13]).

([11]) انظر : التحرير والتنوير ، الجزء الخامس والعشرين : 21 ، 22 .

([12]) انظر:تفسير البيضاوي، وعليه حاشية محيي الدين شيخ زاده ، ضبط وتصحيح ، محمد عبد القادر شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1419هـ - 1999م الجزء السابع : 401 .

([13]) انظر: تفسير بحر العلوم ، تحقيق وتعليق الشيخ على محمد معوض ، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي ، كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر ،

وعلى كل حال ، فإن الخاتمة أُكِّدت بالأداة (ألا) ، إضافة إلى الناسخ (إنَّ) ؛ لتناسب مقام الإنكار الذي وقع من المشركين في حق البعث . وإن كان الإنكار –كما يقول ابن عاشور – منوطا بالفذلكة الأولى (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ) ، فإن الفذلكة الثانية (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ) ، جاءت مبنية عليها ، ومن ثم تدخل في ركابها .

أما بالنسبة لكلام ابن عاشور ، في أن تأكيد الجملتين بحرف التأكيد ، مع أن المخاطب بهما لا يشك في ذلك ، لقصد الاهتمام بهما واستدعاء النظر، لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيات ، فلي عليه تحفظ لسببين :**الأول** أنه قال في الفذلكة الأولى: إن المشركين المعاندين ، كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث . إذن المقام مقام إنكار ، ومن ثم جاءت الخاتمة مبنية على الأسلوب الخبري الإنكاري . **الثاني** : صحيح أن المخاطبين (النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته) ليسوا في حاجة إلى تأكيد ، وإنما مَنْ في حاجة إلى تأكيد ، هم المشركون المعاندون الذين ينكرون البعث .

إن الخطاب القرآني يحمل في تضاعيفه ثلاثة مخاطبين: النبي صلى الله عليه وسلم، بوصفه المخاطَب الأول ، الذي يتلقى عن ربه ، ثم الصحابة والمسلمين الذين يتلقون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم غير المسلمين الذين يستمعون إلى القرآن الكريم ، ويتابعون ما جاء فيه عنهم ، وموقفه منهم .

ووفقا لهذا ، فإني أرى أن التأكيد هنا للفريق الثالث ، الذي يشك في البعث . وأنا لا أنفي ما قاله ابن عاشور ، من أن (ألا) ، جاءت لقصد الاهتمام واستدعاء النظر ، وإنما أضيف عليه ، أن الأداة(ألا)جاءت للتأكيد والتحقيق والتنبيه،أي أنها جاءت لتأدية وظيفتها الطبيعية المنوطة بها.

كما يعد أسلوب القصر من الأساليب الخبرية . وحاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان ([14]) .وفي أنواع القصر يقول القزويني :" القصر حقيقي وغير حقيقي ، وكل واحد منهما ضربان : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ، والمراد الصفة المعنوية لا النعت "([15]) . أما النوع الأول / الحقيقي ، فإن قصر الموصوف على الصفة فيه مثل : ما زيد إلا كاتب ، إذا أردت أنه لا يتصف بصفة غير الكتابة ،

دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1413 هـ - 1993 م ، الجزء الثالث : 188 .

([14]) انظر : السكاكي ، مفتاح العلوم : 400 .

([15]) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة : 98 .

وهذا لا يكاد يوجد في الكلام ؛ لأنه ما من متصور إلا وتكون له صفات تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر . أما الثاني وهو قصر الصفة على الموصوف فمثل : ما في الدار إلا زيد . والفرق بينهما ظاهر ، فإن الموصوف في الأول لا يمتنع أن يشاركه غيره في الصفة المذكورة ، وفي الثاني يمتنع([16]).

أما القصر غير الحقيقي ، فقد سماه الهاشمي (قصر إضافي) ، وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة ، والنسبة إلى شيء آخر معين ، لا لجميع ما عداه ، وذلك نحو: ما خليل إلا مسافر ، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره كمحمود مثلا ، وليس قصدك أنه لا يوجد مسافر سواه ، إذ الواقع يشهد ببطلانه ([17]).

وقصر الموصوف على الصفة ، في القصر الإضافي مثاله : (ما الله إلا خالق كل شيء). وقصر الصفة على الموصوف، في القصر الإضافي مثاله: (ما زعيم إلا سعد)([18]).

كما ينقسم القصر الإضافي إلى ثلاثة أقسام ، بحسب حال المخاطب : **الأول** قصر إفراد ، وذلك إذا اعتقد المخاطَب الشركة ، نحو (إنما الله إله واحد). **الثاني** قصر قلب ، إذا اعتقد المخاطَب عكس الحكم الذي تثبته ، نحو : ما مسافر إلا علي . ردا على من اعتقد أن المسافر خليل لا عليٌّ ، فقد قلبت وعكست عليه اعتقاده . **الثالث** قصر تعيين ، إذا كان المخاطَب يتردد في الحكم ، فتقول : الأرض متحركة لا ثابتة ، ردا على من شك وتردد في ذلك ([19]) .

كما يقع القصر بين المبتدأ والخبر ، وبين الفعل والفاعل ، وبين الفاعل والمفعول ، وبين المفعولين ، وبين الحال وصاحبه ، وغير ذلك من المتعلقات ([20]). وطرق القصر أربع: العطف ، والنفي والاستثناء ، واستخدام (إنما) ، والتقديم ([21]) .

وإذا كانت جلُّ هذه الطرق والأنواع تقع في القرآن الكريم ، فإن ما وقع منها في خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى ، قد مَثُلَ في نوع واحد ، وهو النفي والاستثناء . وإذا كانت أدوات

([16]) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة : 99 .

([17]) انظر : جواهر البلاغة : 170 . وقد التفتُ إلى جواهر البلاغة ، لوضوح هذه الجزئية فيه .

([18]) انظر : السابق :171.

([19]) انظر : السابق نفسه : 173 .

([20]) انظر : القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة : 408 ، 409 .

([21]) ولعدم الإطالة ، انظر بالتفصيل : السكاكي ، مفتاح العلوم : 400 – 404 . وانظر كذلك : الهاشمي ، جواهر البلاغة : 167 – 169 . وأعتقد أن هذا يكفي في الجانب التنظيري ، إذ الهدف هو الجانب التطبيقي .

الاستثناء كثيرة : إلا ، غير ، سوى ، عدا ، ما عدا ، خلا ، ما خلا ، حاشا ...، فإن ما وقع منها في خواتم الآيات ، جاء معتمدا على(إلا). أما النفي ، فقد جاء بالأداتين : (لا) ، (ما) .

والآن ندخل إلى عالم التطبيق . يقول المولى عز وجل : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة :163) . ومن الواضح أن الخاتمة ، اعتمدت على النفي بـ(لا) والاستثناء بـ(إلا) . وقد وردت هذه الخاتمة في سياق قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ* خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ*وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .

ووفقا لإعراب الدكتور محمود سليمان ياقوت ، فإن الآية الأخيرة كلها تعد خاتمة ؛ لأن جملة (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) خبر ثان للمبتدأ (إلهكم) ، والرحمن والرحيم بدلان من الضمير (هو) ([22]) . ومن هنا . تعتبر الآية كلها لحمة لغوية واحدة .

وهنا يقول الطبري :" وأما قوله جل ثناؤه (لا إله إلا هو) ، فإنه خبر منه جل جلاله أن لا رب للعالمين غيره، ولا مستوجب على العباد العبادة سواه، وأن كل ما سواه فهم خلقه ، والواجب على جميعهم طاعته ...وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه أهل الشرك به على ضلالهم ، ودعاء منه إلى الأوبة من كفرهم ، والإنابة من شركهم "([23]) .

ويقول الزمخشري :"لا إله إلا هو ، تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته"([24]). ويقول الرازي:" فيما يتعلق بهذه الكلمة (لا إله إلا هو) أن تصور النفي متأخر عن تصور الإثبات ، فإنك ما لم تتصور الوجود أولا ، استحال أن تتصور العدم ، فإنك لا تتصور من العدم إلا ارتفاع الوجود . فتصور الوجود غني عن تصور العدم ، وتصور العدم مسبوق بتصور الوجود ، فإن كان الأمر

([22]) انظر : إعراب القرآن الكريم ، دار المعرفة الجامعية ، بدون تاريخ ، الجزء الأول : 272 . كما يوجد إعراب آخر (للرحمن الرحيم)، وهو أنهما خبران لمبتدأ محذوف تقديره (هو) ، انظر : محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق– بيروت ، بدون تاريخ، المجلد الأول : 222 .

([23]) انظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ الجزء الثاني : 746 .

([24])انظر: الكشاف ،ت.عادل الموجود،علي معوض، مكتبة العبيكان ،ط1، 1418هـ - 1998م ج1

كذلك، فما السبب في قلب هذه القضية في هذه الكلمة (لا)حتى قدمنا النفي وأخرنا الإثبات ؟ والجواب: إن تقديم النفي على الإثبات كان لغرض إثبات التوحيد ونفي الشركاء والأنداد"([25]) .

كما يقول القرطبي :" (لا إله إلا هو) نفي وإثبات . أولها كفر ، وآخرها إيمان ، ومعناه : لا معبود إلا الله "([26]) . ويقول البقاعي :" (لا إله إلا هو) ، فهذا تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته . فلا يصح بوجه ، ولا يمكن في عقل أن يصلح للألوهية غيره أصلا ، فلا يستحق العبادة إلا هو "([27]) . ويقول الألوسي :" (لا إله إلا هو) خبر ثان للمبتدأ أو صفة أخرى للخبر ، أو جملة معترضة لا محل لها من الإعراب ، وعلى أي تقدير هو مقرر للوحدانية ، ومزيح — على ما قيل — لما عسى أن يتوهم أن في الوجود إلها لكن لا يستحق العبادة "([28]) . وأخيرا يقول ابن عاشور :" وقد أفادت جملة (لا إله إلا هو) التوحيد ؛ لأنها نفت الألوهية عن غير الله تعالى . وخبر لا محذوف ، دل عليه ما في لا من معنى النفي ؛ لأن كل سامع يعلم أن المراد نفي هذه الحقيقة ، فالتقدير لا إله موجود إلا هو "([29]) .

وإذا تأملنا قوله (لا إله إلا هو) ، وجدنا أنه من قبيل القصر الحقيقي ، تحت نوع قصر الصفة على الموصوف . فالصفة هي الألوهية ، والموصوف هو الحق سبحانه وتعالى. وحسب ما ورد في الإيضاح عند القزويني ، فإن هذا الضرب تمتنع فيه المشاركة ؛ أي مشاركة الموصوف في الصفة المقصورة عليه ، أي امتناع مشاركة الحق سبحانه وتعالى في صفة الألوهية . ومن هنا، فإن الحاصل هو التأكيد على الوحدانية والتفرد في صفة الألوهية ، ومن ثم الأحقية بالعبادة .

وأحيانا يقع القصر (بما) و(إلا) ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص :65) . ويبدأ السياق العام لهذه الخاتمة من قول الله عز وجل : ﴿ هَذَا وَإِنَّ

([25])انظر :مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1401هـ- 1981م ، الجزء الرابع : 193 .

([26])انظر:الجامع لأحكام القرآن،ت.عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة،ط1، 1427 هـ -2006 م ج2: 489

([27]) انظر : نظم الدرر ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، الجزء الثاني : 280 ، 281 .

([28]) انظر : روح المعاني ، الجزء الثاني : 30 .

([29])انظر:التحرير والتنوير ، ج2 : 75.وانظر إعرابها، الدرويش ، إعراب القرآن الكريم، مج1: 222— 226 .

لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (ص:55) . حتي نصل إلى السياق الخاص ، المحمل بالإنذار : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

وقد وردت الخاتمة كما نرى ، مبنية على أسلوب القصر، مسبوقة بالأسلوب نفسه (إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ) . وهو قصر قلب للصفة على الموصوف ، لقولهم ساحر كذاب . وتأتي (إنما) لإثبات ما بعدها ونفيه عما سواه ، ومن هنا ، فإنها قصرت الإنذار على النبي صلى الله عليه وسلم ([30]) .

ولننظر ماذا تقول التفاسير المختلفة . يقول البقاعي:"(إنما أنا منذر) أي مخوف لمن عصى، ولم أدَّعِ أني إله ليطلب مني ذلك/ما يثبت تخويفه لهم في الدنيا ، فإنه لا يقدر على مثله إلا الإله ، فهو قصر قلب للموصوف على الصفة ، وأفرد قاصرا للصفة في قوله (وما) وأغرق في النفي بقوله (من إله) ، أي معبود بحق لكونه محيطا بصفات الكمال . ولما كان السياق للتوحيد الذي هو أصل الدين ، لفت القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه وأبين فقال:(إلا الله) ، وللإحاطة عبَّر بالاسم العَلَم الجامع لجميع الأسماء الحسنى ، ولو شاركه شيء لم يكن محيطا ، وللتفرد قال مبرهنا على ذلك (الواحد) ، أي بكل اعتبار فلا يمكن أن يكون له جزء ، أو يكون له شبيه فيكون محتاجا مكافئا . (القهار) أي الذي يقهر غيره على ما يريد . وهذا برهان على أنه الإله وحده، وأن آلهتهم بعيدة عن استحقاق الألوهية لتعددها وتكافؤها بالمشابهة واحتياجها"([31]) .

ويقول الألوسي :" (إنما أنا منذر) أنذرتكم عذاب الله تعالى للمشركين ، والكلام رد لقولهم هذا ساحر كذاب ، فإن الإنذار ينافي السحر والكذب . وقد يقال : المراد إنما أنا رسول منذر ، لا ساحر ولا كذاب ، وفيه من الحسن ما فيه ، فإن كل واحد من وصفي الرسالة والإنذار ينافي كل واحد من وصفي السحر والكذب . لكن منافاة الرسالة للسحر أظهر وبينهما طباق ، فكذلك الإنذار للكذب ، وضم إلى ذلك قوله تعالى : (وما من إله إلا الله) لإفادة أن له صلى الله عليه وسلم صفة الدعوة إلى توحيده عز وجل أيضا، فالأمران مستقلان بالإفادة. و(مِنْ) زائدة للتأكيد أي ما إله أصلا إلا الله (الواحد) أي الذي لا يحتمل الكثرة في ذاته بحسب الجزئيات، بأن يكون له سبحانه ماهية كلية ، ولا بحسب الأجزاء .(القهار) لكل شيء "([32]) .

([30]) انظر:عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ،محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي– القاهرة،2004م: 328 .

([31]) انظر : نظم الدرر ، الجزء السادس عشر : 413 .

([32]) انظر : روح المعاني ، الجزء الثالث والعشروين : 219 .

وأخيرا يقول ابن عاشور :" هذا راجع إلى قوله (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) إلى قوله (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ، فلما ابتدرهم الجواب عن ذلك التكذيب ، بأن نظَّر حالهم بحال الأمم المكذبة من قبلهم ، ولتنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال الأنبياء الذين صبروا ، واستوعب ذلك بما فيه مقنع ،عاد الكلام إلى تحقيق مقام الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه ، فأمره الله أن يقول (إنما أنا منذر) مقابل قولهم (هذا ساحر كذاب) ، وأن يقول (ما من إله إلا الله) مقابل إنكارهم التوحيد كقولهم (أجعل الآلهة إلها واحدا) فالجملة استئناف ابتدائي . وذِكْرُ صفة الواحد تأكيد لمدلول (ما من إله إلا الله) إيماء إلى رد إنكارهم . وذِكْرُ صفة (القهار) تعريض بتهديد المشركين بأن الله قادر على قهرهم ، أي غلبهم "([33]) .

وإذا كان بناء الآية كلها على أسلوب القصر ، من الواضح بمكان ، فما العلاقة المستنتجة من تجاور هذا الأسلوب ، مرة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومرة مع الحق سبحانه وتعالى ؟ .

وتأتي الإجابة عن هذا التساؤل في النقاط الآتية : **أولا** أن دالي منطقة الموصوف يشيران إلى (الحق سبحانه وتعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم) ، وفي هذا ما يدل على تشريف النبي صلى الله عليه وسلم ، ومدى حب ربه له . **ثانيا** أن الصفات التي جاءت مع مولانا عز وجل ، في إطار الألوهية ، الممثلة في الوحدانية والقهر ، تناسب صفة الإنذار التي قرنت بالنبي صلى الله عليه وسلم . **ثالثا**:أن صفات الوحدانية والقهر والإنذار ، ناسبت مقام التحذير والإنكار من قبل المشركين ، كما أنها تعد وعيدا من المولى عز وجل للمعاندين من المشركين وغيرهم ، إلى يوم القيامة. **رابعا**: أنَّ (إنما) لا تأتي في مقام الإنكار، بل تأتي في مقام العارف بالحكم ، وتكمن فائدتها في التنبيه على ما يستوجب على المخاطَب من القيام به ، في إطار معرفته لهذا الحكم . وهنا يقول عبد القاهر الجرجاني :" اعلم أن موضوع (إنما) على أن يجيء لخبر لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحته ، أو لِمَا يُنَزَّل هذه المنزلة "([34]) .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن المشركين ، يؤمنون – على الأقل فيما بينهم – أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق ، ومن ثم فهو منذر . ولم يأت القصر لإثبات ذلك ، وإنما أتى لتنبيه المشركين إلى الأخذ بهذا الإنذار والتحذير منه ، والتخويف من عاقبته .

([33]) انظر : التحرير والتنوير ، المجلد الثالث والعشرين : 294 ، 295 .
([34]) انظر: دلائل الإعجاز :330 .

خامسا:أن جملة الخاتمة (ما من إله إلا الله) ، بُنيت على القصر بـ(ما) و(إلا) لمناسبة إنكار المشركين لعملية التوحيد والتفرد لله عز وجل . وهنا يقول عبد القاهر الجرجاني كذلك :"وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو (ما هذا إلا كذا) ، و(إن هذا إلا كذا) ، فيكون للأمر ينكره المخاطَب ويشك فيه "([35]) . وبهذا ، جمعت الآية الكريمة بين نوعين من الخبر : خبر العارف بالحكم ، وخبر المنكر . والجمع بينهما ، يمثل حجة على المشركين ، يوم العرض على المولى عز وجل .

المبحث الثاني : الخواتم ذات الأساليب الإنشائية

ويندرج النوع الثاني من الأساليب ، التي تُبنى عليها خواتم الآيات القرآنية الشاملة لأسماء الله الحسنى ، تحت الأسلوب الإنشائي . والإنشاء لغة : الإيجاد ؛ واصطلاحا ، ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، نحو اغفر وارحم ، فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب . وإن شئت فقل في تعريف الإنشاء، ما لا يحصل مضمونه ،ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به . فطلب الفعل في (افعل) ، وطلب الكف في (لا تفعل) ، وطلب المحبوب في (التمني) ، وطلب الفهم في الاستفهام ، وطلب الإقبال في (النداء) . كل ذلك ما حصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها ([36]).

وينقسم الأسلوب الإنشائي إلى إنشاء غير طلبي ، وإنشاء طلبي . أما الإنشاء غير الطلبي ، فهو أساليب : المدح والذم ، والقسم ، والتعجب ، والرجاء ، ورب ، ولعل ، وكم الخبرية . ولكل من هذه الأساليب أدواته .

ويندرج الإنشاء الطلبي ، تحت خمسة أنواع من الصيغ: الاستفهام ، والأمر ، والنهي، والنداء ، والتمني . ولكل من هذه الصيغ أدواتها كذلك ([37]) . كما سنبين بعد قليل .

أما الإنشاء غير الطلبي ، فقد وقع منه كثير في خواتم الآيات القرآنية ، التي لا تشمل أسماء الله الحسنى . فقد وقع القسم في قول الله عز وجل:﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:93) . والمدح في قوله :﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران :) . والذم في قوله :﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : 126) . والتعجب في قوله :﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (البقرة : 175) . و(لعل) في قوله :﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة :21) . والرجاء في قوله:﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة : 18) ....إلخ .

([35]) انظر : السابق : 332 .

([36]) انظر : السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة : 69 .

([37])انظر : السكاكي ، مفتاح العلوم : 418 - 436 . وانظر كذلك : العلوي ، الطراز ، الجزء الثالث : 280 – 295 . والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة : 108 – 118 .

وفيما يخص الإنشاء الطلبي ، فإن أول ما يواجهنا من صيغه ، في الخواتم القرآنية التي تشمل أسماء الله الحسنى ، هو صيغة (الاستفهام) . والاستفهام : هو طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام ([38]). أو هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما ، وذلك بأداة من إحدى أدواته ([39]) .

أما أدوات الاستفهام ، فهي : الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، ومتى ، وأيّان ، وكيف ، وأين ، وأنّي ، وكم ، وأي . وتنقسم هذه الأدوات بحسب الطلب إلى ثلاثة أقسام : **الأول** ما يطلب به التصور تارة ، والتصديق تارة أخرى وهو : الهمزة . **الثاني** : ما يطلب به التصديق فقط وهو : هل **الثالث** : ما يطلب به التصور فقط وهو : بقية ألفاظ الاستفهام ([40]) .

وما يقع من هذه الأدوات في خواتم الآيات ، التي تشمل أسماء الله الحسنى ، يتمثل في (الهمزة) . يقول الحق: ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف:39).

وهنا يقول الرازي : " قوله (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) وتقرير هذه الحجة أن نقول : إن الله تعالى بيَّن أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم ...وكون الإله واحدا يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب . فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات . قال ههنا (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ، والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار "([41]) .

ويقول ابن عاشور :" وأراد بالكلام الذي كلمهما به / يقصد قوله تعالى (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) تقريرهما بإبطال دينهما ، فالاستفهام تقريري . وقد رتَّب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة "([42]) .

وأخيرا يقول البقاعي :" ولما فرغ من قرع أفهامهما بالنداء لما يلقيه ، قرع أسماعهما بالإنكار مع التقرير ، فقال (أَأَرْبَابٌ) أي آلهة (مُتَفَرِّقُونَ) متباينون بالذوات والحقائق ، تشاهدونهم محتاجين إلى المكان مع كونهم جمادا ، ولو كانوا أحياء لأمكن تمانعهم ، فأدى إلى إمكان عجز كل منهم القاطع بعدم صلاحيته للإلهية "([43]) .

([38]) انظر : العلوي ، الطراز ، الجزء الثالث : 286 .
([39]) انظر : السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة : 78 .
([40]) التصور: تحديد أحد الأمرين من جملة الاستفهام .أما التصديق ، فهو معرفة الشيء من ناحية ثبوته أو نفيه .
([41]) انظر : مفاتيح الغيب ، الجزء الثامن عشر : 143.
([42]) انظر : التحرير والتنوير ، الجزء الثاني عشر : 274 .
([43]) انظر : نظم الدرر ، الجزء العاشر : 87 .

والآن نحن إزاء ثلاثة آراء : إنكار ، وتقرير ، وإنكار وتقرير . وعلى كل حال ، إذا اعتمدنا الرأي الأول ، فإن الإنكار يتوجه إلى المسند إليه (أرباب) ، بانتفاء مضمون المسند (خير) . والحاصل من هذا ، أنه حتى إذا وجدت هذه الأرباب – على ما فيها من تفرق – لا خير فيها .

وإذا اعتمدنا الرأي الثاني ، فإن التقرير، يعني إبطال دينهم ،كما قال بذلك ابن عاشور . وهذا وذاك/ الإنكار والتقرير ، يتوجهان في حالتي النفي والإبطال إلى(أَأَرْبَابٌ)؛ لكونه الدال المتقدم التالي للهمزة ([44]) . وإذا كان الرأيان على هذا النحو ، فإن الرأي الثالث، لا يخرج عنهما في بلاغته ، ولا سيما أنه يجمع بين الرأيين .

والمهم في كل هذا ، أن سيدنا يوسف كان من البلاغة بمكان لسببين : **الأول** أنه ساق برهانه في صورة سؤال ، استجلابا للسامع برد العلم إليه ، وسماها أربابا لمثل ذلك بناء على زعمهم ، وكذا المشاركة في أفعل التفضيل ؛ لأن ذلك أقرب إلى الإنصاف ؛ لكونه أَلْيَنَ في القول ، فيكون أدْعى إلى القبول ([45]) .

الثاني: أنه قدم في الآية التالية لهذه الآية ، ما يبرر إنكاره ، وتقريره بإبطال دينهم ، في قوله :﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:40) .

ووفقا لهذا ، فقد وقع السؤال في مكانه الصحيح ، معتمدا على (الهمزة) ، في إطار طلب الحصول على التصور ، في الاختيار بين الأرباب المتفرقة أم الله الواحد القهار . ولما توجهت دلالة النفي والإنكار وتقرير الإبطال إلى الطرف الأول (الأرباب) ، ومن ثم ، نفي الخيرية عنه ، فإنها أثبتت – على الجانب الآخر – الخيرية إلى الطرف الثاني (الله سبحانه وتعالى) ، ومن ثم أحقيته بالعبادة . وعلى هذا النحو ، أدت بنية الاستفهام وظيفتها في إنتاج الدلالة القرآنية .

وفي إطار الاستفهام بالهمزة ، تأتي خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى ، معتمدة على الاستفهام المنفي . وبخاصة مع الأداتين :(لم) و(ليس) . وفي اجتماع الهمزة مع الأداة الأولى ، يقول المولى:﴿ أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:106) .

ولم يقع في خواتم الآيات ، مثل هذا النوع إلا في هذا الموضع فقط . وقد وردت هذه الخاتمة في سياق قول الله عز وجل : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

([44]) انظر : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز : 111 - 114 .
([45]) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ، الجزء العاشر : 88 .

اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا النوع من الاستفهام ، يسمى الاستفهام المنفي ، والغرض منه التقرير ، والتقرير هو حملُك المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده .وحقيقة هذا الاستفهام ، أنه استفهام إنكار ، والإنكار نفي ، وقد دخل على النفي، ونفي المنفي إثبات ولذا، فالجواب على هذا النوع من الاستفهام، يكون ببلى في حالة الإثبات، وبنعم في حالة النفي([46]).

ووفقا لهذا ، فإن الاستفهام في الخاتمة السابقة ، لا يُجاب عنه إلا ببلى ، يعني : بلى أعلم أن الله على كل شيء قدير . وعِلْمُ المخاطَب (النبي صلى الله عليه وسلم) بقدرة الله من الأمور المستقرة لديه ، بيد أنها عندما تتولد من إقراره هو ، تكون أقوى في الإثبات . هذا من جانب التقرير . وإذا نظرنا إلى حظ الإنكار في هذا الأسلوب ، نجد أنه يعني : أنني أنكر عدم علمي بقدرة الله على كل شيء ، ولما كان الإنكار نفي ، وعدم العلم نفي ، ودخل النفي على النفي ، صار المضمون مثبتا . يعني: أقر بعلمي بقدرة الله على كل شيء .

ويقول الطبري : " قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : أولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله له ملك السموات والأرض حتى قيل له ذلك ؟ قيل : بلى ، فقد كان بعضهم يقول : إنما ذلك من الله جل ثناؤه خبر عن أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك ، ولكنه أخرج الكلام مخرج التقرير ، كما تفعل مثله العرب في خطاب بعضها بعضا ، فيقول أحدهم لصاحبه: ألم أكرمك؟، ألم أُفْضِلْ عليك ؟ . بمعنى إخباره أنه قد أكرمه وأفضل عليه . يريد : أليس قد أكرمتك؟ ، أليس قد أفضلتُ عليك . بمعنى : قد علمت ذلك " ([47]) .

ويقول الإمام البقاعي :" (ألم تعلم أن الله) أي الحائز لجميع أوصاف الكمال (على كل شيء قدير) ، على وجه الاستفهام المتضمن للإنكار، والتقرير المشار فيه للتوعد والتهديد"([48]).

ويقول الألوسي :" الاستفهام قيل : للتقرير ، وقيل : للإنكار ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأريد بطريق الكناية هو وأمته المسلمون ، وإنما أفرده ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أعلمهم ، ومبدأ علمهم ، ولإفادة المبالغة مع الاختصار ...والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع

([46])انظر:الزركشي، البرهان، ت.محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ،ط2 1972م ج2 :331-333.

([47]) انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الجزء الثاني : 404 .

([48]) انظر : نظم الدرر ، الجزء الثاني : 98 .

الضمير لتربية المهابة ؛ ولأنه الاسم العَلَم الجامع لسائر الصفات ، ففي ضمنه صفة القدرة ، فهو أبلغ في نسبة القدرة إليه من ضمير المتكلم المعظم "([49]) .

ويقول ابن عاشور :" والخطاب في (تعلم) ليس مرادا منه ظاهره الواحد ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو إما خطاب لغير معين خارج على طريقة المجاز بتشبيه من ليس حاضرا للخطاب ، وهو الغائب منزلة المخاطب ، في كونه بحيث يصير مخاطبا لشهرة هذا الأمر ...وإما مراد به ظاهره وهو الواحد ، فيكون المخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن المقصود منه المسلمون ...والاستفهام تقريري على الوجهين / أي سواء لغير معين أو للرسول ، وهو شأن الاستفهام الداخل على النفي...وقد أشار في الكشاف أنه تقريري، وصرح به القطب في شرحه . ولم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو مراد به التقرير " ([50]) .

وكما هو واضح ، فقد أجمعت كل التفاسير على أن الاستفهام ، جاء لإفادة التقرير، أو الجمع بين الإنكار الداخل على النفي ، ليفضي إلى مضمون التقرير كذلك .

لكن السؤال : أما كان من الممكن أن تأتي الخاتمة ، في إطار الأسلوب الخبري ، ومن ثم تكون (والله على كل شيء قدير) ؟ وإن كان ذلك كذلك ، فلماذا اعتمدت على الأسلوب الإنشائي ، الذي اتكأ على أداة الاستفهام (الهمزة) ، والنفي (لم) ، ليأتي الناتج الدلالي مفيدا للتقرير ؟ . وتكمن الإجابة ،في أن الخاتمة جاءت معتمدة على صيغة الاستفهام التقريري ، للأسباب الآتية :

أولا: عظم ما تتناوله الآية من مضمون ، فالآية تتحدث عن النسخ في القرآن الكريم. والنسخ من العلوم الصعبة بالنسبة للمسلمين ، فضلا عن غير المسلمين . ولما كان حكمة النسخ من الأمور التي اختص بها علم الله ، وكان علم الله الواسع والمحيط من الأمور البديهية المستقرة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة ، والمسلمين من بعدهما ، جاءت الخاتمة في صيغة الاستفهام التقريري ، لتثبت رسوخ الإيمان والثقة بالله عز وجل من جانب المؤمنين ، من خلال إقرارهم بما يؤمنون به في الأصل ، المتمثل في يقينهم بعلم الله وطلاقة قدرته .

ثانيا أن مولانا عز وجل ، يعلم أن مسألة النسخ من المسائل التي سيخوض فيها المشركون والكفار ، محاولين تشكيك المسلمين في دينهم ، فجاءت الخاتمة ، متضمنة إقرار المسلمين ،

([49]) انظر : روح المعاني ، الجزء الأول : 354 .

([50]) انظر : التحرير والتنوير ، الجزء الأول : 664 ، 665 .

واعترافهم ، وقوة يقينهم بعلم الله وقدرته ، وحكمته في نسخ آية أو تبديلها ، بما يصلح لهم عاجلا في الدنيا ، أو آجلا في الآخرة ؛ ليكون ذلك صفعة لغير المسلمين ، وردا لكيدهم ، وسدا منيعا لمنافذ الشكوك ؛ إذ كيف يشككون في أمر ، أقر به المسلمون سلفا .

ثالثا: أن مضمون السؤال في الخاتمة ، جمع بين العلم والقدرة . والقدرة هنا تعني القوة ، كما يقول الطبري ([51]) . وإذ ينبثق علم المسلمين بقوة الله عز وجل ، وقدرته ، وحكمته ، في عملية النسخ من إقرارهم ، من شأنه أن يتلقى المؤمنون عن الله بحب ، وطاعة ، وشغف في التنفيذ . مما يبرز تأثرهم بالإيمان ، ويساعد على إسعادهم في الدنيا وفي الآخرة .

أما أداة النفي الثانية التي تأتي مع (الهمزة) في صيغة الاستفهام ، فتتمثل في (ليس) . وهنا يقول مولانا عز وجل : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ (التين :8) ([52]) .

ويقول الزمخشري :" (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) وعيد للكفار ، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله "([53]) . كما يقول القرطبي في (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) :" أي : أتقن الحاكمين صنعا في كل ما خلق . وقيل :(بأحكم الحاكمين) قضاء بالحق ، وعدلا بين الخلق . وفيه تقرير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم . وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي ، وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجابا " ([54]) .

ويقول البقاعي :" ولما صح أن تارك الظالم بغير انتقام ، والمحسن بلا إكرام ، ليس على منهاج العدل الذي شرعه الله تعالى ، حسن جدا تكرير الإنكار بقوله سبحانه وتعالى : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) أي على ما له من صفات الكمال ، وأكده بالجار في قوله (بأحكم الحاكمين) أي حتى يدع الخلق يهلك بعضهم بعضا من غير جزاء ، فيكون خلقهم عبثا ، بل هو أحكم الحاكمين ، علما وقدرة وعدلا وحكمة بما شوهد من إبداعه الخلق ومفاوتته بينهم "([55]) .

ويقول محي الدين شيخ زادة في حاشيته على تفسير البيضاوي :" ثم حقق أنه عليه الصلاة والسلام غير مكذب بسبب الدين ، فقال على سبيل الاستفهام الإنكاري (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ

([51]) انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الجزء الثاني : 403 .
([52]) وانظر كذلك :(الأنعام :53) . وكذلك :(الزمر:37) . وكذلك : (العنكبوت : 10) .
([53]) انظر : الكشاف ، الجزء السادس : 402 .
([54]) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثاني والعشرين : 373 .
([55]) انظر : نظم الدرر ، الجزء الثاني والعشرين : 149 .

الْحَاكِمِينَ) . وإنكار عدم كونه تعالى أحكم الحاكمين ، أثبت له فيما ذكره من الخلق والرد كونه أحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا " ([56]) .

كما يقول الألوسي :" (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) أي أليس الذي فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا ، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه سبحانه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . والجملة تقرير لما قبلها . وقيل الحكم بمعنى القضاء ، فهي وعيد للكفار ...وأيّاما كان فالاستفهام على ما قيل تقرير بما بعد النفي" ([57]) .

وكما دل الأسلوب السابق في خاتمة سورة البقرة على التقرير والإنكار، بما فصلناه في موضعه، دل هنا على المعاني نفسها . وعلى كل حال ، استطاع الأسلوب الإنشائي الممثل في صيغة الاستفهام بالهمزة ، أو بالهمزة مع حرف النفي ، أن يشارك وبقوة في إنتاج الدلالة القرآنية ، على نحو معجز ، لم يكن ليبدو كذلك ، لو لم تأت الخواتم معتمدة على هذا الأسلوب .

كما تتمثل الأداة الثانية من أدوات الاستفهام في (ما) . ولـ(ما) مدلولات كثيرة . منها الاستفهام ، ومعناها في هذه الحالة : أي شيء ([58]) . ويتمثل هذا في قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار:6) .

وقد وقعت الخاتمة في إطار النداء (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) . وبعيدا عن الاختلافات التي دارت حول المراد بدال (الإنسان) هنا ، أيعود على كل كافر ، أم خصص لخطاب شخص بعينه ([59]) ، فإن الاستفهام قد وقع في جانب الإنكار . وهنا يقول ابن عاشور:" و(ما) في قوله " ما غرك بربك" استفهامية عن الشيء الذي غر المشرك ، فحمله على الإشراك بربه وعلى إنكار البعث ... والاستفهام مجاز في الإنكار والتعجب من الإشراك بالله ، أي لا موجب للشرك وإنكار البعث ،

([56]) انظر :تفسير البيضاوي ، الجزء الثامن : 633 ، 634 .

([57]) انظر:روح المعاني، ج30 :177.ويرى ابن عاشور أن الاستفهام للتقرير.انظر:التحرير والتنوير،ج30: 431

([58]) انظر : ابن هشام ، مغني اللبيب ، الجزء الاول : 298 .

([59]) قيل : إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، كما قال بذلك ابن عباس وعطاء. وقال عكرمة : المراد أبي بن خلف ، وقال ابن عباس أيضا : المراد أبو الأشد بن كلدة الجمحي ، وعن الكلبي ومقاتل : نزلت في الأسود بن شريق . انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثاني والعشرين : 121 ، 122 . وانظر كذلك : ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثين : 174 .

إلا أن يكون ذلك غرورا غره عنا ، كناية عن كون الشرك لا يخطر ببال العاقل ، إلا أن يغره به غاره ، فيحتمل أن يكون الغرور موجودا ، ويحتمل أن لا يكون غرور " ([60]) .

وعلى كل حال ، فإن مجيء السؤال على هذا الوضع ، فيه نكات : **الأولى** أن السؤال سُبِقَ بالنداء (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) ، وغرض النداء هنا ، ليس الاستحضار ، وإنما التنبيه على ما سيأتي من كلام ، مما يدل على أهمية ما يحمل السؤال من مضمون .**الثانية**: أن دال (الإنسان) جاء عاما ، فالتعريف هنا للجنس . ومعنى هذا أن الدال يمكن سحبه على كل من يغتر بكرم الله عز وجل ، ويتخذ هذا الكرم ذريعة لارتكاب الأخطاء والمعاصى . ومن ثم ، فإن النداء لا يقتصر على من نزل فيه ، بل يمكن أن يدخل في إطاره كل عاص لله عز وجل . **الثالثة**: أن وجود (ما) النكرة التي تعني : أي شيء ، وسؤالها – في بعض مدلولاتها الاستفهامية – عن أعيان ما لا يعقل وأجناسه وصفاته([61])، تلقي بظلال الاستهزاء والتوبيخ للمغتر بكرم الله في ارتكاب جريمة الشرك ، أو حتى من يقترف المعاصي من المسلمين .

ويمكن التحقق من هذا ، بالنظر في المغرِّر . قيل : المغرر هنا هو الشيطان ([62])، وقيل: غره حمقه وجهله ([63]) . وكون أن المغرِّر غير عاقل ، يدل على سفه المغرور . ومن هنا حمل مضمون (ما) توبيخا أي توبيخ لهؤلاء الذين يختلقون الأسباب لشركهم أو لمعاصيهم.

الرابعة: أن مولانا جل وعلا خاطب المخاطَبين بدال (ربك) ، الذي ينطوي على لفتتين : **الأولى** أن دال (رب) يحمل صفات الربوبية ، التي تفضي إلى الإنعام والرزق . وكأن مولانا جل في علاه يقول للإنسان : ما حملك على الاغترار بمن أوجدك في الحياة ، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، ورزقك ولم يحرمك ، وأعطاك ولم يمنعك ، رغم كفرك/على الرأي الراجح في أن المخاطَب هم الكفار ، أو حتى المسلم الذي يتمتع بصفات الربوبية ...إلخ .

وانطلاقا من هذا الفهم، يقول الشيخ الشعراوي في قوله تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف :110) :" (الجنة) أحد ، فلا تشرك بعبادة الله شيئا ، ولو كان هذا الشيء هو الجنة ، فعليك أن تسمو بغاياتك ، لا إلى الجنة ، بل إلى لقاء ربها وخالقها والمنعم بها عليك "([64]) .

([60]) انظر : التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثين : 174 .

([61]) انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع : 402 .

([62]) انظر : الطبري ، جامع البيان ، ج24 : 178، الزمخشري ، الكشاف ، ج6 : 330 .

([63]) انظر: الزمخشري ، الكشاف ، ج 6 :330 ، وكذلك القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،ج22 :122.

وقد نُسب إلى رابعة العدوية أنها قالت فيما معناه : إلهي ! إن كنتُ عبدتك خوف النار فأحرقني بالنار ، أو طمعا في الجنة فحرمها عليّ . وإن كنتُ لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك"([65]) .

أما اللفتة **الثانية** ، فتتمثل في إضافة دال (رب) إلى ضمير (الكاف) العائد على الإنسان . ومعنى هذا ، أن الإنسان مهما عبد غير الله في الدنيا ، ولم يعرف أن الله هو ربه المنعم عليه ، فسيعلم هذا في الآخرة ، فحينها كيف يكون حاله ؟ . ولذا فإن الإضافة – مع ما فيها من تشريف للإنسان – فإنها تمثل حجة عليه في الآخرة .

الخامسة: أن مولانا جل وعلا ساق اسمه (الكريم) الذي يناط بصفات الربوبية ، ليتناسب أولا مع خطاب غير المسلمين ، الذين يتنعمون بنعم الربوبية ، وثانيا ليكون حجة على المشرك أو العاصي ؛ لأن الشكر والعبادة من مستحقات الكريم ، فكيف يأتي الإنسان بعكس ذلك ؟! .

ومن المؤسف أن الإنسان ، فهم مراد الله وصفاته على طريق الخطأ،ومن ذلك صفة الكرم. ذلك أن الإنسان استغل صفة الكرم استغلالا سيئا بارتكاب المعاصي ،حتى قيل في ذلك شعرا:([66])

تكثَّر ما استطعت من الخطايا   فإنك قاصد ربـــا غفـــورا
سيفضي ذاك منك إلـى نعيم   وتلقى مـــاجدا صمدا شكورا
تعض ندامــــة كفيك ممـا   تركت مخافـــة النار السرورا

وقبح هذه الأبيات وخبث معانيها ، مما لا يحتاج إلى تأكيد ، لإثبات خطأ الفهم عن مراد المولى عز وجل ، وأسمائه وصفاته.

وفي تفسير دال (الكريم) ، يقول الرازي : " أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه ، أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين ، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم ؟ ([67]) .

وبعد تعليق طويل لربط الكرم بالحكمة ، يقول :" فكان يجب أن يقول في هذه السورة (الانفطار) : ما غرك بربك الحكيم . والجواب أن الكريم يجب أن يكون حكيما ؛ لأن إيصال

([64]) انظر : تفسير الشعراوي : 5495 .
([65]) انظر:د.عبد الرحمن بدوي ، شهيدة العشق الإلهي،النهضة المصرية، الطبعة الثانية ، 1962م : 91 .
([66]) انظر : ديوان أبي نواس ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ : 307 .
([67]) انظر : مفاتيح الغيب ، الجزء الحادى والثلاثين : 79 .

النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنيا على داعية الحكمة ، لكان ذلك تبذيرا لا كرما . أما إذا كان مبنيا على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرما " ([68]) .

ويفهم من كلام الرازي ، أن صفة الكرم المنوطة بالحق سبحانه، تتضمن صفة الحكمة والعدل. ومن ثم ، فإن الواجب على الإنسان ألاَّ يغتر بكرم الله في فهم مراده على وجه الخطأ . ولتمكين هذه الفاصلة في مكانها ، وأنها أبلغ من ذكر (حكيم) هنا ، يقول الرازي : " فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم . هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم"([69]) . على هذا النحو ، أدت صيغة الاستفهام بـ(ما) وظيفتها الدلالية.

كما تتمثل الصيغة الثانية من صيغ الأسلوب الإنشائي ، في صيغة (الأمر) . وللأمر صيغ أربعة :فعل الأمر ، والمضارع المجزوم بلام الأمر، واسم فعْل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر .

وما وقع في خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى ، من هذه الصيغ ، يتمثل في فعل الأمر، الذي يأتي أحيانا في صيغة المفرد (اعلم) ، وأحيانا أخرى في صيغة الجمع (اعلموا) .

وفي الحالة الأولى ، يقول المولى عز وجل : ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:260) . وقد وردت هذه الخاتمة في سياق قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذه الخاتمة ، وردت في نهاية ثلاث قصص ، تتناول جميعها إحياء الموتى ، بدأت الأولى في المحاجة التي دارت بين النمرود وسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وقد انتهت بهزيمة النمرود وخزيه وإبهاته . ثم جاءت القصة الثانية في موضوع نبي الله العزير عليه السلام ، وقد أراه الله الآيات البينات بعد موته مائة عام ثم بعثه. ثم جاءت الثلاثة في هذا الموضع، مع خليل الرحمن مرة أخرى.

ولما كان البدء والختام مع نبي الله إبراهيم عليه السلام ، جاءت الخاتمة معه بصيغة الأمر (اعلم) للاعتبار والاتعاظ . والاعتبار لا يقع إلا في الأمور الخارقة . ومن هذه الأمور التي مثلت احتجاجا لدى كل الأمم على رسلهم ، مسألة إحياء الموتى . ولما وضح الحق سبحانه وتعالى

([68]) انظر : السابق ، الجزء الحادى والثلاثين : 79 ، 80 .
([69]) انظر : مفاتيح الغيب ، الجزء الحادى والثلاثين : 80 .

هذه المسألة ، عمليا لخليله عليه السلام ، ساق الخاتمة في صيغة الأمر ، للفت الانتباه إلى بيان القدرة.

والأمر بالفعل (اعلم) ، وإن يكن في حالة الإفراد في سياق مخاطبة الحق سبحانه وتعالى لنبيه سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وحتى مع جميع الرسل ، فإنه يتضمن خطاب الجماعة ، ممن يقرأون القرآن أو يستمعون إليه ؛ فخاص القرآن عام ، وعامه خاص .

وإحاطة القدرة في خلق الموتى وإحيائهم ، بالعزة والحكمة ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لمن البلاغة بمكان ، فالله عزيز في بطشه حكيم في أمره ، أو عزيز في نقمته ، حكيم في أمره ([70]) . أو أنه غالب على جميع الممكنات ، (حكيم) أي عليم بعواقب الأمور وغايات الأشياء ([71]) .

ومن هنا ، تلبست الخاتمة بصيغة الأمر ، في خطاب نبي الله إبراهيم عليه السلام ، للفت الانتباه إلى الاعتبار والاتعاظ ، والتعرف الدقيق على القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى في فعل ما يشاء ، بعزة وحكمة ، لا ينازعه فيهما أحد من المخلوقات .

وأخيرا ، تأتي الخاتمة معتمدة على الأسلوب الإنشائي في صيغة الأمر، في خطاب الجماعة (اعلموا) . وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (البقرة :267) . وقد وردت هذه الخاتمة في سياق الإنفاق في سبيل الله ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

ولقد نزلت هذه الآية في الأنصار ، إذ كانت تُخْرِجُ – إذا كان جذَاذُ النخل – من حيطانها أقناء من التمر والبُسْر ، فيعلقونها على حبل بين إسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأكل منه فقراء المهاجرين ، وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف ، وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقناء ، فنزلت هذه الآية فيمن فعل ذلك من الأنصار ([72]) .

وهنا يقول الألوسي:" (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ) عن نفقاتكم وإنما أمركم بها لانتفاعكم ، وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به ، توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث ، وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه عن شأنه ، و(حميد) أي مستحق للحمد على نعمه .

([70]) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الرابع : 650.

([71]) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء السابع : 47 .

([72]) انظر في هذا السبب وغيره : النيسابوري ، أسباب النزول : 89 ، 90 .

ومن جملة الحمد اللائق بجلاله ، إنفاق الطيب مما أنعم به ، وقيل : حامد بقبول الجيد والإثابة عليه" ([73]) .

ويقول ابن عاشور :" وقوله (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ) تذييل ، أي غني عن صدقاتكم التي لا تنفع الفقراء . أو التي فيها استساغة الحرام .(حميد) أي شاكر لمن تصدق صدقة طيبة . وافتتحه بـ(اعلموا) للاهتمام بالخبر ...أو نُزِّل المخاطبون الذين نهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلة من لا يعلم أن الله غني ، فأعطوا لوجهه ما يقبله المحتاج بكل حال ، ولم يعلموا أنه يحمد من يعطي لوجهه من طيب الكسب " ([74]) .

وهنا نجد أن ثمة رأيين للأمر (اعلموا) : **الأول** ما قاله الألوسي من أن الأمر سيق (للتوبيخ) على فعل ما لا يجب فعله . و**الثاني** : ما قاله ابن عاشور من أن الأمر سيق للاهتمام بالخبر ، أي بأن الله غني عن مثل هذا الإنفاق ، محمود لنعمه الظاهرة والباطنة. وكلا التوجهين وقع في موقعه .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئا إلى هذا ، فإن الأمر قد سيق هنا للتنبيه والتحذير والزجر ، كما أنه يحمل معنى التخويف . وكل هذا ، بهدف الابتعاد والتبرئة من مثل هذه الأفعال التي تقلل الثواب ، وبخاصة في الإنفاق . وإذا كان الأمر قد وُجِّه للأنصار ، في هذا الموقف ، فإنه أمر للمسلمين بوجه عام . وكما قلت من قبل : إن الخطاب العام موجه إلى الخاص في الوقت نفسه .

وبقسمي الكلام :الخبر والإنشاء ، بدت الخواتم القرآنية التي شملت أسماء الله الحسنى، واعتمدت على بعض الصيغ التي تُكَوِّنُ الخبر والإنشاء ، على أجمل وأروع ما يراد لها من البلاغة والإعجاز . كما أدى التنوع الصياغي بين الخبر والإنشاء،وظيفة مهمة ودورا أساسيا في إنتاج الدلالة القرآنية.

الخاتمة والنتائج :

على هذا النحو ، انبثقت هذه الدراسة ، التي ناقشت خواتم الآيات القرآنية ، التي تشمل أسماء الله الحسنى، باعتمادها على أسلوبي الخبر والإنشاء .وقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية :

([73]) انظر : روح المعاني ، الجزء الثالث : 40 .

([74]) انظر : التحرير والتنوير ، الجزء الثالث : 58 .

أولا: لم تخرج خواتم الآيات عن سنن العرب في استخدامهم للغتهم العربية ، لذا بنيت على نوعي الأسلوب : الخبري والإنشائي . وقد صدق الله العظيم إذ قال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء : 193 — 195) .

ثانيا: وردت خوات الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى ، في قمة المناسبة — ببنائها على نوعي الأسلوب : الخبري والإنشائي — مع ما تضمنته آياتها من مضامين ومعان ، تعالج المواقف التي نزلت من أجل تسليط الضوء عليها ، والتنبه لها .

ثالثا: التحفت هذه الخواتم بكل الطاقات اللغوية ، التي تبنى عليها اللغة الإبداعية ، بعيدا عن المستوى المألوف ، أو العادي في عملية توصيل الخطاب إلى متلقيه .

رابعا:بينت هذه الدراسة أهمية تلك المنطقة (الخواتم القرآنية) – مع أنها تشغل حيزا ضيقا ، إذا قيست بالآيات القرآنية — بالنسبة للآيات الكريمة ، وأوضحت أنها بمثابة محطة للتكثيف اللغوي الدلالي، إذ بدونها لا يتم المعنى ، ولا يعرف المراد ، ولا تصح الفائدة .

خامسا :بما أن الدراسة قد كشفت عن الإعجاز القرآني ، في منطقة الخواتم وحدها ، فهذا يعني أن القرآن معجز جملة وتفصيلا ، حتى باستخدامه للحروف في حالاتها الإفرادية ، مما يغري الباحثين بمواصلة البحث في الإعجاز القرآني ؛ لأن إعجازه لن ينتهي ، وعطاؤه لن ينقطع ، وفيضه لن يجف ، وريادته للمسلمين ، وأخذه بأعنتهم ، لا بديل عنه . فالقرآن القرآن !!.

سادسا : راعى الخطاب القرآني أحوال المخاطَبين : من مصدق ، ومنكر ، ومبالغ في الإنكار ؛ ولما كان علم البلاغة قد أُسس على الذكر الحكيم ، فقد استقى معناه – مراعاة مقتضى الحال — من إعجاز القرآن الكريم ذاته . هذه المراعاة التي تغنت بها نظرية التلقي في العصر الحديث .

قائمة المصادر والمراجع :

1-الألوسي:روح المعاني ، طبعة دار إحياء التراث العربي ،بيروت – لبنان ، بدون تاريخ .

2-بدوي (عبد الرحمن): شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية)، مكتبة النهضة،ط2 ، 1962م .

3-البقاعي : نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، بدون تاريخ .

4-البيضاوي : تفسير البيضاوي ، وعليه حاشية ، محيي الدين شيخ زاده ، ضبط وتصحيح ، محمد عبد القادر شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م .

5-الجرجاني (عبد القاهر) : دلائل الإعجاز ،محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، 2004م .
6-الدرويش (محيي الدين): إعراب القرآن الكريم وبيانه ، اليمامة للطباعة، دمشق، بدون تاريخ .
7-الرازي : مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1401هـ- 1981م .
8-الزركشي: البرهان في علوم القرآن،محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، ط2، 1972م.
9-الزمخشري:الكشاف،ت.عادل عبد الموجود ، علي معوض، مكتبة العبيكان ،ط1 1998م .
10-السكاكي: مفتاح العلوم ،ت.عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ،ط1، 2000م .
11-السمرقندي:بحر العلوم ،على معوض،عادل عبد الموجود ،دار الكتب العلميةط1 1993م.
12-الطبري : جامع البيان ، ت.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر ، بدون تاريخ .
13-ابن عاشور: التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر، 1984 م .
14-العلوي : الطراز ، مطبعة المقتطف بمصر ، 1914 م
15القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ت.عبد الله التركي ،الرسالة للطباعة،ط1 ،2006م.
16-القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى، 2003م.
17-النيسابوري : أسباب النزول ، ت.كمال زغلول، دار الكتب العلمية،ط1، 1991مـ .
18-أبو نواس : ديوان أبي نواس ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
19-الهاشمي (السيد أحمد) : جواهر البلاغة ، المكتبة العصرية ، الطبعة الأولى ، 1999م .
20-ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، 1991م .
21-ياقوت (الدكتور محمود سليمان):إعراب القرآن الكريم،دار المعرفة الجامعية، بدون تاريخ.